سوسيولوجيا التحولات القيمية ومجتمع الاتصال
مقاربة سوسيو- مفاهيمية

بومدين مخلوف
قسم علم الاجتماع
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة محمد بوضياف "المسيلة"

مقدمة:

من خلال تتبع مدلول رصد التحولات القيمية قد يلاحظ تناقض وصراع ثقافي وأزمة سلوك واختراق قيمي للبناء المجتمعي، ومختلف هذه المفارقات والتوترات والتحولات على مستوى النسق القيمي والبناء المجتمعي، تتحدد من خلال مؤشرات داخل السياق المجتمعي من حيث تغير المكانة وتعدد المركزية، والأنماط السلوكية المستحدثة التي اخترقت بعض المعايير المجتمعية البنائية للنسق القيمي، وكذلك الفراغ الاجتماعي من حيث ضعف العلاقات وتراجع أسلوب الاتصال والتماسك كقيمة، كما يؤكد الحراك وسرعة التأثر والتفاعل حتمية اندماج العديد من الأبنية النسقية بمؤثرات جانبية مستحدثة داخل محور السياق الاجتماعي، ومن خلال مقاربة سوسيو -قيمية ثقافية ومقاربة إعلامية اتصالية قيمية، تتحدد بنية المجتمع وتحولاته في ظل اتساع الفضاء الإعلامي والاتصالي.

I. المقاربة المفاهيمية:

التطور في الزمان والاختلاف في المكان يتطلب مقاربات منهجية وتفكيك مفاهيمي لمختلف تكنولوجيات الإعلام والاتصال كمؤثرات جانبية، بهدف قراءة التحولات العلائقية على مستوى النسق السوسيو -قيمي للبناء المجتمعي، فقد تشكل عمليات الاتصال من حيث التركيب والترتيب والتنظيم جودة إنتاجية "تصميما وهندسة"، باعتبار سمتها الأساسية تتمثل في لامركزية صناعة المضمون "إنتاج المعلومة" تحولات واختراقات للبناء السوسيوقيمي، وباعتبار هذه التكنولوجيات فضاء معلوماتي

للمستخدمين إعلامياً واتصالياً عن طريق استهلاك المعلومات، يتطلب تنظير سوسيولوجي حتمي وإعادة قراءة المضامين بمستوى قيمي.

1. **التغير الاجتماعي:**

باعتبار"التغير الاجتماعي *(Le Changement Social)* يشير إلى نمط من العلاقات الاجتماعية والأشكال الثقافية التي يظهر عليها الاختلاف أو التحولات خلال فترة محددة من الزمن"،[1] ومن منظور قيمي لهذه التحولات الاجتماعية الحاصلة داخل الحقل الاجتماعي، وجب الاهتمام بالنسق الأسري بهدف تشكيل الأدوار وتفعيل التنظيم الاجتماعي *(L'organisation sociale)* ضمن السياق المجتمعي، أو ما يسميه دوركايم "التضامن العضوي" الذي يركز على التمفصل العضوي للأفراد من حيث أن الوظائف تكون في نفس الوقت مختلفة ومكملة لبعضها".[2]

2. **التحولات القيمية والبناء الأخلاقي:**

قد يحدث التغير في القيم حين لا يستطيع النموذج الثقافي أن يستمد التغيير من مصدر خارجي، وإنما يتعين عليه أن يطوره من داخل المجتمع، فالتغير القيمي يحدث نتيجة للتغيرات في بيئة المجتمع المؤثرة أو الفاعلة، أي في المدى الكلي للعوامل الاجتماعية والثقافية والديموغرافية والاقتصادية والتكنولوجية التي تصوغ أسلوب الحياة في المجتمع.[3] وضمن هذا الطرح فالأخلاق ضمن حقل القيم تحتل موقعا مركزيا ومكانة محورية جوهرية، باعتبارها مجموعة من القواعد والنواظم السلوكية التي تسلم بها جماعة من الأفراد في حقبة ما، محتواها يتشكل في فرض القواعد التي ينبغي أن يحتذي بها الإنسان في سلوكه.[4] ومنه فالفعل الإنساني يتميز ببعده

---

[1]- محمد فؤاد حجازي: **التغير الاجتماعي**، مكتبة وهبة للطباعة والنشر، ط1، القاهرة، 1978، ص 213.

[2]- Bawin-Le gros (Bernadette):**L'ordre sentimental, A quoi sert la famille aujourd'hui**? Edition Payot, 2003, p31.

[3]- علي أحمد: تأثير القنوات الفضائية الوافدة على القيم الأسرية، دار الكتاب، القاهرة، 2004م، ص.106.

[4]نهى عبد العزيز محمود يوسف: دراسات في المذاهب الأخلاقية،تقديم: ماهر ع القادر محمود،أورينتال، الإسكندرية، 2009، صص26، 25.

الأخلاقي القيمي المتمثل في القواعد المعيارية المنظمة للسلوك الإنساني، وتشكل الظروف الخارجية علامة محورية في تشكيل بنية السلوك.[1]

3. **تكنولوجيا الاتصال والبناء المجتمعي:**

قد يلاحظ ولشكل بارز الحضور المكثف والقوي لتكنولوجيات الإعلام والاتصال داخل البناء المجتمعي، ومن خلال أسئلة عميقة تستنطق مواصفات الفرد المعاصر داخل حقل المعلومات، وآلية الممارسة والاستخدام، وقراءة النسق القيمي المتداخل والديناميكي والملغم لمضمون ومحتوى الرسالة الإعلامية الاتصالية الحامل لثقافة غربية حديثة منحطة، وكتصور بحثي استشرافي قيمي قد يمارس هذا الزخم المعلوماتي والربط العلائقي تحولات وإقصاءات قيمية ثقافية أصيلة ظلت معايير بنائية ارتقائية للنسق المجتمعي.

4. **التغير القيمي ومجتمع الاتصال:**

مركزية التحول القيمي قد تتشكل وفق عملية التقارب التقنو -إعلامي الاتصالي بمستجداته البنائية وتدفق معلوماته ومستوى قيمة مضمونه "حامل إلكتروني"، وفي ظل التباعد القيمي والثقافي للأنساق المجتمعية "المفارقة"، قد تتشكل سياقات سوسيو- قيمية ثقافية مختلفة، ومنه فقيمة الاتصال في بنية العلاقات داخل الحقل الاجتماعي تتأسس وتتأصل وفقا لما تختص به المعلومة كقيمة.

مجال التمعن في الحقل الاجتماعي المعاصر بمستوى متخصص قد يلاحظ سلطة مؤثرات تقنو -إعلامية اتصالية جانبية بسمات خاصة من حيث التطور والتعدد والتنوع والتكامل ومن حيث القوة وحتمية الاستخدام، كما يمكن ملاحظة تحولات عميقة في أدق بنيات السياق المجتمعي من حيث الربط العلائقي والدور الوظيفي، وحراك تركيبي واسع الانتشار سريع النسق للوحدات المشكلة للسياق السوسيو - قيمي والثقافي للبناء المجتمعي.

التكنولوجيات الاتصالية الحديثة تحمل في داخلها ثقافة المجتمع الذي أنتجها[2]، وبما أتاحته من وسائل اتصالية متطورة جدا من حيث التنوع في بناءاتها التركيبية التقنية "المعدات والأجهزة"، ووظائفها التكاملية الواسعة مجال الفضاء الاتصالي،

---

[1] منصور علي رجب: تأملات في فلسفة الأخلاق، مطبعة مخيمر، القاهرة، ط1، 1953، ص 181

[2] جوهر الجموسي: المجتمع الافتراضي، مؤسسة "نوفا برنت" للطباعة والنشر،ط1، تونس، 2007م، ص.17.

قد تساهم بدورها وبشكل أساسي في عملية التثاقف، وإعادة بناء السلوك وفقا لما تقتضيه المضامين الاتصالية الحديثة، وحسب مستوى الوعي وآليات الاستخدام ورغبة وتنوع حاجات الأفراد المشكلة للبناء النسقي الاجتماعي.

II. مقاربات سوسيولوجية:

قد يعتبر "تعديل السلوك في ضوء إدراك وجود الآخر"[1]، حتمية قيمية للأبنية والأنساق المشكلة للسياق الاجتماعي، فالاتصال والتفاعل داخل الحقل القيمي الثقافي يتأسس على وتيرته النسيج المجتمعي، وفي ظل حتمية تكنولوجيات الإعلام والاتصال وتنوع المضامين بها، وغياب أو ضعف التصورات الاستشرافية لدى المستخدمين، قد يجعل الأبنية المجتمعية أكثر عرضة للتوتر وحتى لاختراق الأنساق السوسيو -ثقافية الأصيلة، ومنه وكرؤية إستشرافية حتمية عملية التنظيم الاجتماعي وتنمية مستوى وعي وإدراك الفرد، وتفعيل أسلوب التصور ولغة التميز بين السلبي والإيجابي وتعديل السلوك وإثبات القيمة والارتقاء بالثقافة.

1. الحقل الفلسفي:

المنظور الفلسفي للقيم هو البحث في طبيعتها وأصنافها ومعاييرها، وهو يرتبط خاصة بعلوم: المنطق والأخلاق والجمال،[2] فالقيمة تعتبر كل ما هو جدير بالاهتمام والعناية لاعتبارات اجتماعية واقتصادية وأخلاقية وجمالية، تشمل الجوانب المادية والروحية.[3]

وتطلق القيمة في الأخلاق على ما يدل عليه لفظ الخير، بحيث تكون قيمة الفعل تابعة لما فيه من خير، فكلما كانت المطابقة بين الفعل وبين الصورة الغائية الذهنية أو المثالية للخير، كلما كانت قيمة الفعل أكبر، أما الصورة الذهنية فتسمى القيم المثالية **(valeur idéales)** وهي الأصل الذي تبنى عليه أحكام القيم **(jugements de valeurs)** أي الأحكام التي تأمر بالفعل أو الترك.[4]

2. الحقل السوسيولوجي:

---

[1] Levi strauss. Claude**. Les structures élémentaires de la parenté**. Paris. Edition mouton. P.124.

[2]- مصطفى عبده: فلسفة الأخلاق، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 1999م، ص.14.

[3]- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج2، مرجع سابق، ص 212.

[4]المرجع نفسه، ص 213.جميل صليبا

مكونات السوسيولوجيا عند أوغست كونت **(Auguste Comte)** تتمثل في علم الأخلاق،[1] باعتبارها علم يبحث في الأحكام القيمية التي تنصب على الأفعال الإنسانية والسلوك الخلقي الذي اصطلح عليه المجتمع، ويتكون هذا السلوك من مجموعة من القواعد التي تبين للأفراد كيف يجب أن يتصرفوا في الحالات والمواقف التي تعرض لهم من دون أن يخالفوا في ذلك ضمائرهم أو العرف السائد في مجتمعهم.[2]

القيمة الأخلاقية مجال الحقل الاجتماعي فضيلة وواجب وسلوك وعمل إنساني، تتشكل محوريا بأسلوب قيمي وبتوفر ثلاث عناصر تتمثل في : العمل والغاية والفاعل، فالعمل يطلق على تركيب ذي دلالة، والغاية التي يتطلع إليها العمل، ويكون العمل بالضرورة فعل فاعل من أجل غاية، وعندها تتشكل المسؤولية لبنية العمل بالمعيار القيمي الأخلاقي، أي غير آلي ولا غريزي، ولا اعتيادي ولا شعوري، بل إنه عمل اختيار شعوري واع، فهو يختلف عن العفوية ويتضمن أساسا مبدأ الحرية، ذلك أن العمل بذاته لا يكون فعلا أخلاقيا إلا إذا واكبته حرية اختيار أمر على أمر، وترجيح قيمة على سواها.[3]

نسق المهتمين والباحثين في مجال سوسيولوجيا هو مركزية تفعيل المنظومة القيمية وفق منهجية علمية عملية، أي من أجل التنظير لمسار تنموي والتناول الاستشرافي في دراسة مجتمع المستقبل بطرح نظرة جديدة وأصيلة ورؤية شاملة تهدف إلى تعقيق مستوى الوعي والإدراك الاجتماعي.

ومنه النسق السوسيولوجي الماركسي يضع القيم ضمن المستويات العليا للمجتمع التي تضمن كل من الدين والأخلاق وأشكال الوعي المختلفة، وبناءا على طبيعة هذه المحددات فإن علماء الاجتماع يتجهون للإشارة بأن القيم هي مستوى أو معيار للانتقاء من بين بدائل أو ممكنات اجتماعية متاحة أمام الشخص الاجتماعي في الموقف الاجتماعي، و على هذا الأساس فإن القيم تعتبر حقائق أساسية هامة في البناء الاجتماعي وهي لذلك تعالج من منظور سوسيولوجي على أنها عناصر بنائية،

---

[1]- أحمد ملاح: المختصر في تاريخ الفلسفة الغربية، رياض العلوم، الجزائر، ط1، 2006م، ص.129.

[2]- أحمد زكي بدوي: معجم مصطلح العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، 1986م، ص.139.

[3]المرجع نفسه، ص ص 517، 518.

تشتق أساسا من التفاعل الاجتماعي، حيث ينصب اهتمامهم على بناء النظم ووظيفتها وأنواع السلوك، وعلاقتها بهذه النظم ولكن من منظور جماعي.[1]

في ظل تداخل وتعقد الحاجات والرغبات وتنوع الثقافات وتعدد القيم، وإشكالية استخدام الشبكات المستحدثة الذي يفتقر إلى نقاط ارتكاز علامات استدلالية قيمية، قد يتشكل خلل سلوكي وأزمة أخلاقية ضمن مسار البيئة المجتمعية، وبالتالي هدف السوسيولوجيا إعادة القراءة استشرافيا وتشكيل وتأسيس عقد اجتماعي ثقافي تربوي أخلاقي، وتكوين علاقات قوية ضمن نسق التفاعل الاجتماعي.

بهذا هذا الطرح نجد النسق الدوركايمي: يعتبر الهاتف شكلا من أشكال التكنولوجيا التي تعمل على التضامن العضوي (**Organic Solidarity**) بين أفراد المجتمع، ويشكل الاتصال الإذاعي والتلفزيوني قوة كبيرة في إيجاد حالة من التوازن والتضامن بين أفراد المجتمع عن طريق ماتحدثه بينهم من تصورات جمعية مشتركة (**Collective Representations**).[1]

ضمن النسق الفيبري فإن الاذاعة والتلفزيون تعمل على تزويد المجتمع بعناصر الثقافة الرفيعة، ويتعبر الوسائط أداة فاعلة في دعم العقلانية التي هي برأيهم السبب الرئيسي في التغيير الاجتماعي في المجتمعات الرأسمالية الغربية، إذ تعمل هذه الوسائط على تخفيف القيود التي يفرضها الزمان والمكان.[2] كما نجد أهمية الوسائط الاتصالية ضمن **النسق الماركسي** تلجأ إليها الطبقات الحاكمة في مجتمع ما من أجل فرض سيطرتها وبسط نفوذها وهيمنتها بصورة دائمة.[3]

III. المقاربة البحثية:

تعمل وسائل الإعلام على تمرير القيم والتقاليد من الأجيال السابقة إلى الأجيال الآتية، فبتطور المجتمعات وانعزالهم وتناثرهم عن بعض، أصبحت وظيفة نقل التراث عبر وسائل الإعلام وظيفة أساسية وضرورية وذلك للحفاظ على التراث الثقافي للمجتمع،[4] ويشكل الاتصال ضمن حقل القيم والمعايير الاجتماعية تفاعل

---

[1] -Alexander. J.C. ed. **Durkheimian Sociology. Cultural Studies**.1988

[2] -Collins r.1979 The Credential Society.

[3] -Schiler. H. **Information Inequality. The Deepening Social Crisis in America**.1996

[4] - حسن عماد مكاوي: **الاتصال و نظرياته المعاصرة**، ط6، الدار المصرية اللبنانية 2006: ص 71-80 .

بين أفراد المجتمع، باعتبار السلوك الذي ينتقل من جيل إلى جيل يشكل الثقافة، ومن هنا تظهر حتمية التربية وتفعيلها وممارستها على مستوى نسق جماعة الأسرة الناقلة للأفكار وللقيم، وباعتبار القيمة وحسب **غي روشيه Guy Roche**r "نموذج أو مثل أعلى في نظر فرد أو جماعة، يستمد منه كل شخص توجهه نحو سلوك منحى معين".[1]

تميز النسق التقنو- إعلامي الاتصالي بالمكونات البنائية والشبكية والسمات التفاعلية، أثبت قوة تجاوزت تأثيراتها الأبعاد المادية في اتجاه خلق تشكلات افتراضية، وأزمة تحولات عميقة في البنيات المجتمعية محورها اتساع الفضاء الاتصالي والتقارب الزماني والمكاني، والارتباط بالآخر والتحول البنيوي لحاجات الأفراد من حيث تعددها وتنوعها، ومنه فحقل القيم داخل زمن مجتمع الإعلام والاتصال تميز بالنسبة والتغير، وهذا قد يؤول إلى طبيعة وخصوصيات وتنوع احتياجات الأبنية المجتمعية، وما تفرضه سمات السياق التكنولوجي الإعلامي الاتصالي من تطور متسارع من حيث التحديث والجودة، ومن تحول في بنياته المشكلة للنسق الاتصالي المعاصر

خاتمة:

قد لا يقتصر النسق التكنولوجي الإعلامي الاتصالي على التحديث المتتالي للمكونات البنائية فحسب، بل تعدى في غالب الأحيان إلى حتمية ممارسة الفرد له، وهو بذلك قد يتجاوز وعي الفرد المستخدم، مما قد يؤدي إلى التحول والإقرار بأن الاستخدام غير المؤسس يشكل أزمات مجتمعية ثقافية عميقة، هذه الأزمات تتأسس بشكل محوري انطلاقا من الذات، كما يمكن اعتبار إثبات وجود الذات بمستوى وعي عالي يؤسس التحكم في محددات القوى الجانبية.ويشكل بنيات تبدع في تنمية نسق القيم.

غير أن حتمية تكنولوجيات الاتصال كظاهرة قد تشكل قطيعة "الإشباع وفق ما تقتضيه قوتها الضاغطة"، وتواصل "علاقات آلية فارغة من كل مضمون قيمي"، فهذه المفارقة تتمثل أساساً في التباعد القيمي والتقارب الاتصالي، وهي بذلك أزمة قيمية ضمن السياق الاجتماعي. وعموما حقل القيم في ظل اتساع فضاء ومجال

---

[1]- Guy Rocher, **Introduction à la sociologie générale. I:L'action sociale,** Paris: Editions Points, 1995, p.72.

الإعلام والاتصال يشكل مفهوم خاص عن الصيرورة التي أساسها التفاعل والانبهار والتغير، ومن هنا فالقيم داخل هذا المجال قد تمثل رغبة انفعالية ذاتية، ومركز للتحولات القابلة للاختراق والسيطرة.

- قائمة المراجع:

1. أحمد زكي بدوي: **معجم مصطلح العلوم الاجتماعية**، مكتبة لبنان، 1986م.
2. أحمد ملاح: **المختصر في تاريخ الفلسفة الغربية**، رياض العلوم، الجزائر، ط1، 2006م.
3. جميل صليبا: **المعجم الفلسفي**، الجزء الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م.
4. حسن عماد مكاوي: **الاتصال و نظرياته المعاصرة**، ط6، الدار المصرية اللبنانية 2006م.
5. علي أحمد: **تأثير القنوات الفضائية الوافدة على القيم الأسرية**، دار الكتاب، القاهرة، 2004م.
6. محمد فؤاد حجازي: **التغير الاجتماعي**، مكتبة وهبة للطباعة والنشر، ط1، القاهرة، 1978م.
7. مصطفى عبده: **فلسفة الأخلاق**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 1999م.
8. جوهر الجموسي: **المجتمع الافتراضي**، مؤسسة "نوفا برنت" للطباعة والنشر،ط1، تونس، 2007م.
9. منصور علي رجب: **تأملات في فلسفة الأخلاق**، مطبعة مخيمرة، القاهرة، ط1، 1953م.
10. نهى ع العزيز محمود يوسف: **دراسات في المذاهب الأخلاقية**، تقديم: ماهر ع القادر محمود،أورينتال، الإسكندرية، 2009م.

11. Alexander. J.C. ed. **Durkheimian Sociology**. Cultural Studies.1988

12. Bawin-Le gros (Bernadette):**L'ordre sentimental, A quoi sert la famille aujourd'hui**? Edition Payot, 2003, p31.

13. Collins r.1979 The Credential Society.

14. Guy Rocher, **Introduction à la sociologie générale. I:L'action sociale,** Paris: Editions Points, 1995, p.*72*.

15. Levi strauss. Claude. **Les structures élémentaires de la parenté.** Paris. Edition mouton. P.124.

16. Schiler. H. **Information Inequality. The Deepening Social Crisis in America**.1996